قراءات

قراءة في كتاب
"منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"

د. فتحي حسن الملكاوي

إعداد:
د. مصطفى فاتيحي
د. محمد قاسمي

مركز نهوض للدراسات والنشر
NOHOUDH CENTER FOR STUDIES AND PUBLICATIONS

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٢٠
All rights reserved © 2020

قراءة في كتاب:

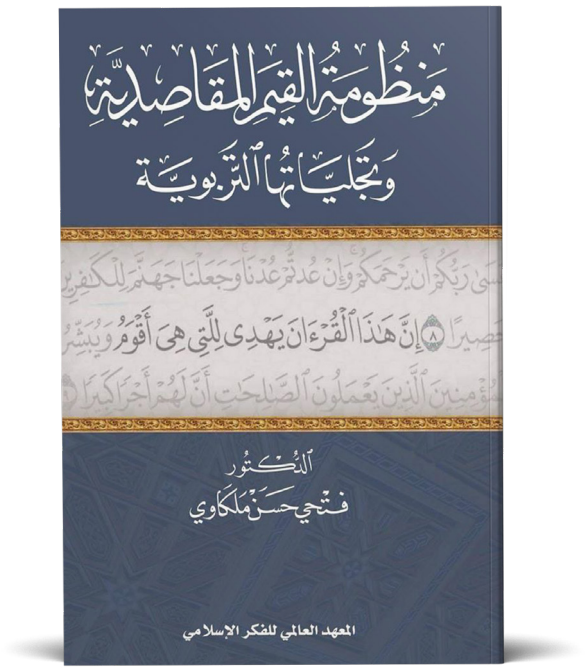

"منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية"

د. فتحي حسن الملكاوي

إعداد:

د. مصطفى فاتيحي

د. محمد قاسمي

📖 الفهرس:

الفهرس..... ٣

هدف الكتاب ٤

سياق تأليف الكتاب ٦

محتويات الكتاب..... ٧

الأفكار الرئيسة للكتاب..... ٧

- مقصد التوحيد ٧

- مقصد التزكية ١١

- مقصد العمران ١٣

- القيم والمقاصد في التراث الإسلامي..... ١٥

- الأطروحة المركزية للكتاب ١٨

على سبيل الختم ١٩

يُعَدُّ الحديث عن القيم من الموضوعات المهمَّة التي تتَّسم بقدرٍ كبيرٍ من الراهنية والجاذبية، نظرًا لتعالقه مع حقول معرفية عديدة. وإذا تمَّ تناوله من خلفية مقاصدية، كان ذلك من آكد الدواعي للوقوف المليِّ معه، ومن المحفزات القوية على التأمُّل المستبصر لعناصره وزواياه.

ذلك ما قام به فتحي حسن ملكاوي في مؤلَّفه الأخير: «**منظومة القيم المقاصدية وتجلياتها التربوية**». وتتجلَّى أهمية هذا الكتاب بالنظر إلى تكوين المؤلِّف الأكاديمي في علوم الاجتماع والتربية واهتماماته المتعدِّدة في مجالاتٍ معرفية وازنة. فهو تربوي وأستاذ جامعي أردني، حاصل على الدكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم من جامعة ولاية ميتشغان الأمريكية، والماجستير في علم النفس التربوي، والبكالوريوس في الكيمياء والجيولوجيا. عمل في التعليم العام مدرسًا ومشرفًا تربويًّا ومشاركًا في وضع المناهج وتأليف الكتب المدرسية. ثم عمل في التعليم الجامعي، وهو أستاذ زائر في أكثر من ٢٠ بلدًا في آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا.

من مؤلَّفاته:

- **منهجية التكامل المعرفي:** أساسيات في المنهجية الإسلامية، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، **٢٠١١**.
- **منظومة القيم العليا الحاكمة:** التوحيد والتزكية والعمران، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، **٢٠١٣**.
- **البناء الفكري:** مفهومه ومستوياته وخرائطه، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، **٢٠١٥**.

وهو يعمل حاليًا مديرًا إقليميًّا للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ورئيسًا لتحرير مجلة **إسلامية المعرفة**، وعضوًا في مجمع اللغة العربية الأردني.

والكتاب صادر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي سنة ٢٠٢٠م، ويقع في ٢٧٨ صفحة.

هدف الكتاب:

سعى المؤلِّف إلى تطوير الأفكار التي كانت عبارة عن حواشٍ وشروحاتٍ لما تناوله طه جابر العلواني في كتابه «التوحيد والتزكية والعمران: محاولة في الكشف عن القيم والمقاصد العليا الحاكمة».

وتمتدُّ فكرة الكتاب إلى سنواتٍ خلت، حيث كان المؤلِّف مهتمًّا بالنظام المعرفي الإسلامي المتعلِّق بالأسئلة الكبرى والنهائية عن الله والكون والإنسان؛ بحيث شكَّلت ثلاثية (التوحيد والتزكية والعمران) - عند المؤلِّف - نسقًا يرنو من خلاله إلى البرهنة على تأثيرها الإيجابي في تربية الفكر والنفس والوجدان، وبناء الشخصية الإنسانية في أبعادها المتعدِّدة، وتشييد نظم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وفي الوقت نفسه التطلُّع إلى ثمارها الإيجابية على المستوى الحضاري، باعتبارها قيمًا إنسانية عالمية، فيعم نفعها سائر الخلق، وعناصر الكون ومفرداته.

يستلهم الملكاوي منهجية العلواني وينسج على منواله، فيقول: «والشيخ العلواني بعقليته الشرعية النقدية يريد هذه المنظومة مدخلًا منهجيًّا لجهود تنقية التراث الإسلامي مما اختلط به من تراث أهل الكتاب في وقتٍ مبكِّر، ثم من تراث الأُمم الأخرى بعد ذلك، ويريدها مدخلًا مقاصديًّا لمراجعة العلوم النقلية، وقضاياها التاريخية والجغرافية... وهو يرى أن هذه المقاصد العليا الحاكمة يمكن أن تساعد أيضًا على تطوير نظرية معرفية عامة في العلوم الشرعية كلِّها، وكذلك في العلوم الاجتماعية».

ثم إن الملكاوي وإن كان مقتفيًا أثر العلواني، فإنه يسعى إلى الإضافة والتطوير والتتميم بعد الاستيعاب والتحليل والتفسير، يقول: «لقد كانت مادة هذه الفصول في الأساس هوامشَ على عبارات الدكتور طه العلواني الخاصَّة بمنظومة القيم العليا (التوحيد والتزكية والعمران)، التي ردَّدها في كثيرٍ مما كتب، لكنه لم يفصل فيها تفصيلًا يشفي الغليل».

ولقد حاول الكاتب أن يضفي البُعْد المقاصديَّ على الثلاثية المذكورة في أفق اعتبارها موجهاتٍ في الميادين التربوية يهتدي بها المربون وصاغَةُ المناهج التعليمية، فهي قمينة بتسديد الوجهة وإنهاج مسارات الاشتغال، بغية الوصول إلى فلسفة تربوية راشدة، باعتبار المجال التربوي مجالاً محوريًّا في تفعيل منظومة المقاصد، فهو الأرضية والمنطلق لتحقيق النهوض الحضاري المنشود.

ويتطلَّع المؤلف إلى اعتبار منظومة المقاصد قادرةً على تصحيح المسار الذي هيمن على النُّظم التربوية والسياسية والاقتصادية والإعلامية الحديثة، والحيلولة دون مزيدٍ من المآلات السلبية الناتجة عن الفصام بين المعرفة والقيم.

وعليه، فإن المؤلِّف يرنو إلى الانعتاق من شرنقة الاجترار والجمود اللذين ظلَّا يحكمان نمط الاشتغال في ميدان القيم والمقاصد، فيحاول أن يتقدَّم خطواتٍ إلى الأمام من خلال مقترحاتٍ عملية وأوَّلياتٍ قابلة للتطوير والاستدراك.

لقد قصد المؤلف إلى تحديد دلالة القيم الثلاث من القرآن والسُّنة، وهو أمر له دلالته وفحواه؛ لأنه يسعى إلى بناء المفهوم من منابعه الصافية، بعيدًا عمَّا علق به من فهومٍ وشوائبَ حسب السياقات التاريخية والاجتماعية. ولأنه يرغب في صياغة الكليَّات الناظمة، فقد عمل على البحث في جذورها الأصلية.

وإذ ينحو هذا المنحى، فإنه يبرهن على بُعْدِ نظر وسعةِ أُفق، على اعتبار أن الإغراق في التفاصيل والجزئيات يُفقد القدرة على النظر الكليِّ المُجمِّع، ومن ثَمَّ تكون الثمرات والنتائج متناقضةً ومبعثرةً.

📖 سياق تأليف الكتاب:

يأتي هذا الكتاب في ظروفٍ نوعية وحيثياتٍ خاصة، تتدافع فيها المشاريع الفكرية والرؤى الثقافية والتصورات الإصلاحية، فالوجهة تبدو واحدة والأساليب متعدِّدة، ويُفضي هذا التعدُّد إلى مساءلة الإنتاجات في أفق تحقيق التلاقح المنشود والتكامل المفيد.

ولا يخفى اليوم الخلافُ الواسع والهوَّةُ الفاصلة بين الفاعلين والباحثين ورواد المذاهب والاتجاهات في ميدان القيم؛ إن على مستوى المفهوم أو على مستوى المصدر. وهذا الخلاف يوجب الحفر المعرفيَّ بغية الصياغة المحكمة للنماذج الحاكمة والأُطر المرجعية الناظمة والموجهة؛ لأن التفكير الكليَّ يمكِّن من نظم التفاصيل والجزئيات، ويعصم من التيه والضياع في الشوارد والقضايا المفضولة.

لقد أدى تجاوز القيم وامتهانُها إلى كوارث تجلَّت في استفحال ظواهر سلبية وتشوهاتٍ في الفكر والسلوك، ولم تُجدِ الخطابات الظرفية العاطفية وردود الأفعال السريعة نفعًا في التخفيف من حدَّة الآثار المدمرة.

ويتواشج مع ما ذُكر آنفًا الحديثُ المسهب اليوم عن المقاصد إلى درجة الاستسهال وكثيرٍ من الاجترار، مما أدى إلى انحسار الإبداع والمعالجة المثمرة للقضايا والإشكالات.

ويأتي هذا الكتاب ليبثَّ نوعًا من الحيوية والجدَّة على الموضوع من خلال التناول المنهجي العميق والحس النقدي المتوازن.

وعليه، يندرج هذا الكتاب ضمن الكتابات التي تعكس الانهمام بالبنى والأنساق الفكرية الرامية إلى إصلاح مناهج التفكير، وبناء التصورات الواعية التي تستشرف المستقبل، بعد الالتفات المستبصر للماضي واستيعاب الحاضر.

🕮 محتويات الكتاب:

ضمَّ هذا السفر مجموعةً من القضايا والمفاهيم والمعلومات، تناولها الكاتب في مقدمة وخمسة فصول ثم خاتمة ولائحة للمراجع.

- **مقدمة:** بسطَ فيها رؤيته ومنهجيته لتناول الموضوع.
- **الفصل الأول:** التوحيد: الأساس الأول في منظومة القيم العليا.
- **الفصل الثاني:** التزكية في منظومة القيم العليا.
- **الفصل الثالث:** العمران في منظومة القيم العليا.
- **الفصل الرابع:** القيم المقاصدية وتجلياتها في التراث الإسلامي والفكر المعاصر.
- **الفصل الخامس:** تفعيل المقاصد في التربية والتجليات التربوية للقيم العليا.
- **خاتمة:** أجملَ فيها أبرز ما توصَّل إليه والآفاق التي فتحها عمله واشتغاله.

الأفكار الرئيسة للكتاب:

عالج الكتاب أفكارًا محورية لها تعلُّق مباشر بموضوعه، يمكن إجمالها في الآتي:

التأصيل القرآني والنبوي للقيم المقاصدية: وذلك من خلال تتبُّعه لموارد ألفاظ القيم في الوحيين، وفيما يلي بيان مقتضب لذلك:

🕮 مقصد التوحيد:

وقد اعتبره المؤلِّف أسَّ المقاصد وقاعدتها التي تنبني عليها تصورًا وتصديقًا، فجعله في المرتبة الأولى[1]، وبنى عليه تصوره للمقصدين الآخرين، فالتوحيد «رأس الأمر كله في الإسلام»، وهو «دائمًا أساس الدين عند الله ورسالة الله إلى الأنبياء والرسل أجمعين»[2]. ومن هنا، فإن النظر إلى التوحيد حسب الرؤية المقاصدية والقيمية اقتضت من المؤلِّف التعرض لأبعاده العقلية والوجدانية وانعكاساتهما العاطفية والواقعية، فيكون قيمة لها أبعادها المختلفة والمتكاملة في حياة الفرد والأمة[3].

---

(١) ص٢٢.
(٢) الصفحة نفسها.
(٣) انظر: ص٣٢.

وقد حاول المؤلِّف استقراء موارد **التوحيد** في القرآن الكريم وبيان طرق التعبير القرآني عنه، مستثمرًا ذلك في الدلالة على كونه أساسَ المقاصد التي من أجلها خُلق الإنسان، وحاكمًا للمقاصد الأخرى، ومهيمنًا على فكرة الوجود وفلسفة الحياة والمآل.

ولكونِ السُّنة النبوية بيانًا عمليًّا للقرآن الكريم وتجليًا واقعيًّا لمبادئه الكبرى، فإن الكتاب تعرض لموارد التوحيد في السُّنة من خلال عرضٍ مختصرٍ لأبواب الحديث المتضمنة له، مستنجدًا بالاستقراء الناقص والتمثيلي، ومكتفيًا بالتنويه بجهود بعض علماء الحديث في الاعتناء بالتوحيد في كتبهم الحديثية، وذلك انسجامًا مع قصده في بيان قيميته ومقاصديته وهيمنته على الفكر والحياة[٤].

كما ميَّز الملكاوي بين موضوع التوحيد وعلم التوحيد، فالأول له تعلُّق بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات تصورًا واعتقادًا، والثاني مرتبطٌ بالأدوات الحجاجية عن عقيدة التوحيد مما سُمي بعلم الكلام وأصول الدين والفقه الأكبر.

ولكون التوحيد مهيمنًا على الفكر والحياة، فإن المؤلِّف تعرض لبعض هذه التجليات على مستوياتٍ مختلفة من الاجتماع البشري:

فبيَّن أن **النظام الأسري** في التصور الإسلامي قائمٌ على روح التوحيد في بناء الرابطة الزوجية ووظائفها التربوية والحضارية، انطلاقًا من كون الأسرة «وحدة بناء المجتمع». ولبيان مناحي تميُّز التصور التوحيدي الإسلامي للأسرة، عقد مقارنةً بين هذا النظام و«النظرية الشيوعية التي حاولت إلغاء دور الأسرة»، وأدَّت إلى «إضعاف الروابط والعلاقات الأسرية»، كما قارن بين النوذج الإسلامي والنزعة الفردانية في الغرب «التي تسبَّبت في انفراط عقدِ الأسرة وإيصالها إلى مرحلة الاحتضار».

ومما ميَّز التصور التوحيدي لنظام الأسرة عن غيره من النظريات الأنثربولوجية «التي تنظر إلى العلاقات بين البشر في ضوء ما هو قائم بين الحيوانات»، هو ارتباطها بالشريعة الإسلامية تصورًا وتنزيلًا، ومقاصدية قيمها الناظمة لكينونتها المحقِّقة لوظائفها وأدوارها التربوية والحضارية[٥].

أما على **مستوى الأمة**، فلا شكَّ أن قيمة التوحيد - بمقاصديتها الحضارية - قدَّمت تصورًا لبنائها وعلاقاتها وأدوار مؤسساتها وأفرادها، فالأمة التوحيدية قائمةٌ على «الانسجام والتلاؤم مع الفطرة،

---

(٤) انظر: ص٣٤.

(٥) انظر: ص٥٧.

وما تتطلَّبه من علاقات المودَّة والرحمة والتكامل في المسؤوليات»[٦]، وبهذا تكون الأمة ذات طابعٍ متحدٍ (أمة متحدة) مبنية على آصرة الدين.

وعليه، فإن جميع أدوار الأمة قائمةٌ على مسمَّى «النظام»، وهو نظام مبنيٌّ على هوية دينية تنظم مؤسساته ونسيجه الاجتماعي، ومن هنا فإن الوضع الطبيعي في علاقة الأمة بالدولة مبنيٌّ على كون الأولى أصلًا للثانية، ولا تستمدُّ الدولة شرعيتها الواقعية والتنفيذية إلَّا من قِبل الأمة.

وعليه، فالأمة المسلمة تفرض هويتُها أن تكون الدولة بأجهزتها ومؤسساتها مسلمةً كذلك، وأي تصرف للدولة خارج نطاق الأمة الموحِّدة وقناعاتها وأولوياتها، فهو تصرف خارج عن نطاق المشروعية المجتمعية ذات المصدرية الدينية التوحيدية.

ولهذا، فإن المؤلِّف يرى أن وحدة الأمة ليست مكسبًا عرقيًّا أو بيولوجيًّا أو لغويًّا أو سياسيًّا، وإنما هي وحدةٌ من أصلٍ دينيٍّ وخلقيٍّ، قائم على الخيرية المشروطة بالإيمان والوظائف الدعوية والمجتمعية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، من غير إكراه ولا تسلُّط ولا تجبُّر[٧].

أما تجليات التوحيد في **النظام السياسي**، فقد جعله الملكاوي في تحقيق وحدة الأمة، أي توحيد المرجعية والاستمداد الفكري لها، وهو تجلٍ يلقي بظلاله الوارفة على اختيارات الأمة الحضارية فهمًا وعملًا. وقد جعل لوحدة الأمة ثلاثَ خصائص: توحيد الرؤية للعالم، وتوحيد التجربة، ثم توحيد العمل. وهي خصائص وإن كانت مفقودةً في الواقع نسبيًّا، غير أنها مطالبُ ينبغي تحقيقها جماعيًّا في الأمة الموحِّدة[٨].

كما أن التوحيد له تجلياتٌ على **النظام الاقتصادي** وتأثيره البيِّن في بناء النُّظم المالية والعلاقات بين أفراد الأمة ومؤسساتها المجتمعية وغيرها، فالنظام الاقتصادي الإسلامي قائم «على مبدأين؛ الأول: عدم شرعية قيام فرد أو مجموعة باستغلال الآخرين، والثاني: عدم شرعية قيام أي فرد أو مجموعة بإنشاء حصار اقتصاديٍّ على الآخرين أو الحجر عليهم»[٩]، والمؤلف ههنا يستلهم تقريرات ابن خلدون القاضية بكون هذين المبدأين وغيرهما سُنَنًا كونيةً واجتماعيةً راجعة إلى طبيعة الإنسان المتسمة بالمدنية والافتقار إلى بني جنسه[١٠].

---

(٦) ص٥٨.
(٧) انظر: ص٦٠.
(٨) انظر: ص٦٣.
(٩) ص٦٦.
(١٠) انظر: ص٦٦.

إن التوحيد باعتباره قيمةً مقاصديةً عُليا له تأثيره المباشر في بناء النُّظم المعرفية وفلسفتها المرجعية التي تحكم مسارها وإنتاجها، وهذا ما أكَّده المؤلِّف وبيَّنه بالمقارنة مع الفكر الغربي المعاصر القائم على الحسِّ والتجريب فقط، بمعنى أنه فكر يُقصي التدخلات المعنوية والماورائية الغيبية في رسم معالم النظام المعرفي وارتباطاته العملية والأخلاقية، وهو فكر ناتج عن الصراع بين السلطة الدينية (الكنيسة) والسلطة العلمية التجريبية[١١].

ويمكن اختصار قوام تأثير التوحيد في النظام المعرفي بناءً وتوجيهًا - حسب الملكاوي - في النقاط الآتية:

- الحقائق الإيمانية في النظام المعرفي الإسلامي حقائقُ عقلانية خاضعة للنقد والاستدلال والحجَّة والبرهان.
- المعرفة في التصور الإسلامي حقيقة قابلة للمعرفة وليست حكرًا على فئة مخصوصة.
- الكون في النظام المعرفي الإسلامي محلٌّ للتفكُّر والنظر؛ لكونه مبنيًّا على سُـنَنيَّة مطَّردة وقوانين حاكمة.

ومن القضايا المتفرعة عن قيمة التوحيد: مضامينُه وتجلياتُه في النظام الجمالي بوصفه خصيصةً للدين الإسلامي، فقد مارس المسلم - في رأي الملكاوي - فنونًا توحي بعمق النظرة الجمالية التوحيدية، مثل فن التزيين الذي توسَّل به لإضفاء الجمال على الملبس والمسكن والمركب والمجلس، وهي ممارساتٌ جمالية محكومة بقيمة التوحيد، **ويمكن حصرها في النقاط الآتية**[١٢]:

- غياب الفنون التشخيصية تعبيرٌ عن التوحيد المطلق.
- طريقة الزخرفة التجريدية اللانهائية في الزخارف الهندسية والنباتية.
- التعبير الجمالي هو تعبير عمَّا لا يمكن التعبير عنه.
- قمة الوعي بالجمال أن الله الواحد يتعالى عن المثل.

إن التوحيد بهذه التجليات الستة يعتبر مهيمنًا على مجالات الحياة، فهو «الذي يعطي للحضارة الإسلامية هويتها»، كما أنه يمثِّل القيمة المركزية في الرؤية الإسلامية، وبهذا يكون حاكمًا على مجالات التفكير والتعبير والتدبير، أو بلغة الملكاوي: «من التفكير والنظر العقلي إلى النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، إلى النسق الجمالي والتفكير العقلي»[١٣].

---

(١١) انظر: ص٦٨.

(١٢) انظر: ص٧٤، ٧٦.

(١٣) ص٧٧.

مقصد التزكية:

يعتبر الملكاوي الحديث عن التزكية حديثًا عن مفهومٍ مركزيٍّ قرآنيٍّ لا يمكن الاستعاضة عنه بمفهومٍ آخر، لكونه يؤدي معانيَ ذات حمولةٍ قيمية ومقاصدية مرتبطة بـ«الإنسان المستخلَف» بما يتضمَّنه الاستخلاف من أبعادٍ حضارية وإصلاحية.

وقد استنجد المؤلِّف لبيان هذا المقصد باستقراء موارده في القرآن الكريم، وبيان دلالات وروده في آيهِ، ويمكن تلخيص ما نظر له في الأفكار التالية:

التمييز بين استعمال القرآن الكريم لمفهوم التزكية سلبًا وإيجابًا، وذلك بتتبُّع الآيات الواردة في القسمين معًا. وعليه، فالتزكية في الاستعمال القرآني على صورتين: تزكية مذمومة، وتزكية ممدوحة.

تتبُّعه لأنواع التزكية الممدوحة في القرآن الكريم، وحصرها في: تزكية المال بطرق اكتسابه المشروعه، ووسائل ومناحي إنفاقه المعقولة، وبإخراج حق المحتاجين منه؛ وتزكية النفس بالترقي بها في مدارج الإيمان والعمل الصالح، وتزكية الله تعالى للإنسان بقبول عمله واصطفائه في مقامات المقربين، والتزكية بوصفها وظيفةً نبويةً اضطلع بها الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع مراحل دعوته.

ولكونِ السُّنة النبوية بيانًا عمليًّا للقرآن الكريم، فإن الكاتب لم يغفل استعمالات الحديث النبوي لها وتتبع دلالاتها وقضاياها، مستنجدًا في هذا التتبُّع بالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي للمستشرق الهولندي أرندجان فنسنك، ولاحظ كون الاستعمالات النبوية لمفهوم التزكية لم تخرج في عمومها عن الاستعمال القرآني، إلَّا في موضوع واحد، وهو «تزكية الإنسان لغيره»[١٤]. وبهذا يتأكَّد لنا أن التزكية مصطلح مركزيٌّ، وقيمة مقاصدية كما سبق.

ولم يغفل المؤلِّف تداول أهل التربية والزهد والتصوف والجهاد (جهاد النَّفْس) لمفهوم التزكية، فقرَّر أن هذا المفهوم متداولٌ عندهم بأبعاده التربوية والإيمانية المرتبطة بتخليص القلوب من الشوائب والأدران، وارتباط قصد المسلم بالثواب الأخروي، وخاصةً عند المتصوفة والزهاد، دون أن يغفل التنبيه على بعض الانحرافات التي طالت المفهوم عندهم[١٥].

---

(١٤) ص٩٣.

(١٥) انظر: ص٩٧.

كما أن التزكية في بحث الملكاوي أخذت مفهومًا موسعًا لارتباطها بأمرين اثنين:

الأول: النفس الإنسانية؛ فلا شكَّ أن مقاربة أي موضوعٍ متعلِّق بالنفس له مداخل وعلائق متشعبة، ومن ذلك تقسيم التزكية عند المؤلِّف إلى:

تزكية الجسم بكل مكوناته وجوارحه، ويقصد بها أن ينخرط الجسم بكليته في البِر والخير والعبادة، فاليد تبطش بالخير، والرجل تسعى إليه، والعين تنظر إلى الملكوت، واللسان ينطلق بالذكر، وهكذا...

تزكية العقل بكونه «صفة تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية»[١٦]، وهذه الصفة هي ما يعبِّر عنها الأصوليون بمناط التكليف والمسؤولية. وعليه، فتزكية العقل عند المؤلِّف تعني إعماله في المعقولات، وتوظيفه في اكتساب المعارف والتمييز بين طبائع الأشياء.

تزكية القلب المتَّسم بكثرة تقلُّبه بين الأحوال، وبما هو محل نظر الله تعالى، فلا شكَّ أن القلب فيه تجتمع الأَضداد، مثل الكفر والإيمان، وفيه تعبر الخواطر بشتَّى أنواعها، فتزكيته ضرورة تربوية وحاجة عملية، فبصلاحه وطُهره تصلح الأعمال وتطهر من علائق الرياء والفساد.

الثاني: تزكية الجماعة والأمة؛ وهي نتيجة تلقائية لتزكية النفس الفرد، وذلك لكون الجماعة والأمة مجموع هؤلاء الأفراد المكوِّنة لهما، وقد انتهى المؤلف إلى أن تزكية الأمة يمكن التوصل إليها بثلاثة مداخل:

١. مدخل العلم والحكمة: بما يتضمَّنه العلم من معارف، والحكمة من مناهج، فلا تزكية بلا علم، وإلَّا أصبحت أذواقًا غير منضبطة ومحاولاتٍ اعتباطية، كما أنه لا تزكية بلا منهجٍ مطرد حكيم وحاكم.

٢. مدخل الشريعة والنظام: لكون الجماعة لا يصلح حالها دون نسقٍ مرجعيٍّ تأوي إليه في تشريعاتها ومنازعاتها، فالشريعة شِرعة للحياة بمجالاتها ومؤسساتها، والنظام حاكم للعلاقات ومُزيح لأسباب الفوضى واللانظام، فهذا النوع من التزكية ذو بُعْد تنظيميٍّ ومجتمعيٍّ.

٣. مدخل الإيمان والأخلاق: لكون التزكية الإيمانية صمامَ أمان لحياة الإنسان الروحية، ولأن التزكية الخلقية ترشيدٌ لحياته العملية، فالإيمان والأخلاق يتكاملان ويتطاوعان، ويصدق بعضهما الآخر.

---

(١٦) ص١٠٣.

ثم ختم المؤلِّف حديثه عن مقصد التزكية بتعيين بعض وسائلها الموصلة إلى التحقُّق بها، وهي: القرآن الكريم، والذكر مع الفكر، وصحبة الصالحين[١٧].

🕮 مقصد العمران:

انطلق الملكاوي في بيانه لهذا المقصد من تنظيرات شيخه العلواني كما أسلفنا من قبل، وقد سلك الخطة نفسها في بحث هذه المقاصد العليا، بدءًا من تأصيلها القرآني والنبوي، ومرورًا ببحوث العلماء فيها، وانتهاءً باستخلاص التصور الشمولي لها.

فقد اعتبر البحث في قيمة العمران منطلقًا من فقهه، أي بالغوص في عناصره وتحليلها وتركيبها وربطها بالحياة «التي يريدها الله للإنسان» تكوينًا وتشريعًا، قدرًا وتكليفًا. فالعمران في نظره «قيمة تحدِّد فقه العمل في الحياة الدنيا، ولا سيما عمل المجتمع»[١٨]. فإذا استطاعت الأمة تجديد فهمه والعودة إلى سيرتها الأولى بخصوصه فقهًا لمقاصده وغاياته، فإنها ستكون الأمة الشاهدة على الأمة شهودًا حضاريًّا وإصلاحيًّا.

ويمكن تلخيص ما نظر له الكاتب في هذا الباب في الآتي:

تلخيص دلالة العمران في الاستعمال القرآني في كونه حقيقة الحياة الفردية والجماعية للأمة، وإعمار الأرض وإصلاحها ماديًّا باستخلاص خيراتها واستثمارها في ذلك، كما أن القرآن الكريم اعتنى بالعمران في أبعاده الثقافية والفكرية، فدعا إلى «تطوير العلوم وبناء المؤسسات وسن القوانين»[١٩] المنظِّمة للعلاقات.

أما تأصيل مفهوم العمران في السُّنة النبوية، فلا يعدو التصور والاستعمال القرآني إلَّا في دلالته الفقهية المعاملاتية مما يُسمَّى بالعمرى، وهي نوع من أنواع التبرعات المالية التي يقصد بها الإعانة المؤقتة بعمر المعطي أو المعطى له أو مدَّة محدودة، وتطابُق الاستعمال النبوي مع الاستعمال القرآني لهذه المفردة دليلٌ على إحكامها وكليتها ومركزيتها في الحياة البشرية.

---

(١٧) ص١٠٨.
(١٨) ص٢٣.
(١٩) ص١٣٧.

ثم عرج المؤلِّف على الاستعمال الخلدوني للعمران، واعتبره سبَّاقًا إلى فقهه ودلالاته الحضارية الكبرى، وهذا السبق الخلدوني هو ما جعل المتأخرين عنه ينهلون من نظريته ويستفيدون منها تثويرًا وتطويرًا، وربما تبنيًا لها دون عزوها إلى صاحبها للأسف!

إن المتأمِّل في استعمال ابن خلدون للعمران باعتباره مفهومًا قرآنيًّا يجده ينحو به منحًى تأسيسيًّا لعلمٍ جديدٍ «يدرس حياة الناس وما يطرأ على هذه الحياة من تحولات وتبدلات، وما ينشأ فيها من علاقات ومؤسسات، سمَّاه علم العمران البشري، أو علم الاجتماع، أو علم الحضارة»[٢٠]. وقد حاول الملكاوي تلخيص نظرية ابن خلدون في العمران، ويمكن اعتصار تلخيصه في النقاط التالية:

العمران الخلدوني تجلٍ لتراكم جهود العلماء، وفهمٌ لسنن النهوض والانهيار الحضاري، وتحليل نقديٌّ لمناهج التدوين والتفكير، واعتبارٌ بالطبائع الفطرية والوقائع العملية، وتجديدٌ في وضع قواعد العلوم وأُسسها للنهوض بها في الحياة العملية (ص١٤٧)[٢١].

العمران في نظره يتحقَّق بمنهج التكامل بين العقل والنقل، والفهم والتقعيد، والجمع بين متطلبات الدنيا والآخرة.

أما شروط تحقُّق العمران بمفهومه القرآني وتأصيله الخلدوني، فتتلخَّص في: تقوى الفرد لله تعالى، والسعي في استثمار مكنون الأرض استجلابًا للأرزاق، والعدل في الحكم بالنسبة إلى الدولة.

ثم انطلق المؤلِّف لتأصيل العلاقة بين العمران والحضارة بوصفها النتاج المادي والمعنوي للإنسان الفرد والجماعة، الأمة والدولة، وبيَّن أنهما متلازمان، فلا عمران بلا حضارة، ولا حضارة في ظل الخراب.

كما أصَّل للعلاقة الوطيدة بين العمران والسياسة والدولة، اعتبارًا للدور التنظيمي والهيكلي الذي تضطلع به الدولة، فهي الأداة والوسيلة لتنمية العمران في جوانبه التنظيمية والسهر على ديمومته والحفاظ على مقوماته، وذلك بالعدل الشامل في كل مناحي الإعمار.

ثم ختم الملكاوي ببيان علاقة الفساد والصلاح بالعمران، فبيَّن أنهما يؤثران فيه نهوضًا وسقوطًا، تقدمًا وتقهقرًا، تثويرًا وإخمادًا، وقوام الأمر في نظره هو قيمة العدل في جانبيه المادي والمعنوي، فاقترح في الأول إصلاح القضاء، وفي الثاني إصلاح المعاش.

---

(٢٠) ص١٤٢-١٤٣.

(٢١) انظر: ص١٤٢-١٤٣.

هـذه هـي أبـرز أفـكار الكتـاب في **فصولـه الثلاثـة**، وبهـذا نكـون قـد قدَّمنـا صـورةً عامـةً لهـا بحيـث يمكـن الرجـوع إلى تفاصيلهـا واسـتدلالاتها في مـتن الكتـاب.

أمـا **الفصـل الرابـع**، فقـد خصَّـه المؤلِّـف ببحـث القيـم المقاصديـة في علاقتهـا بالـتراث الإسـلامي والفكـر المعـاصر، محـاولًا رصـد تجلياتهـا فيهـما، وبيـان تأثيرهـا فيهـما، وفيـما يـلي إلمـاع لأبـرز أفـكار الفصـل:

قبـل الخـوض في تفاصيـل الموضـوع، ذكَّـر الكاتـب بالمنهجيـة المُثـلى للنظـر إلى القيـم الثـلاث القائمـة عـلى التكامـل لا التنافـر. وعليـه، فالنظـر في كل قيمـة يتطلَّـب مـن الناظـر اسـتحضار العلاقـات الوظيفيـة التكامليـة بينهـا وبـين غيرهـا.

🕮 القيم والمقاصد في التراث الإسلامي:

إن ورود القيـم في الـتراث الإسـلامي مقارنـة بالتـداول المعـاصر لـه - حسـب الملـكاوي - لم يكـن بهـذا التطابـق الـذي يـراد لـه أن يكـون، بخـلاف المقاصـد، فهـي مفهـوم مأصـول في الـتراث ومتطـور إلى أن أصبـح علَـمًا عـلى علـمٍ قائـم الـذات، ومـن هـذا المنطلـق تكـون القيـم نتيجـةً للمقاصـد الشرعيـة للأحـكام، كـما أن المقاصديـة وصـفٌ لهـذه القيـم، فهـي ذات أبعـادٍ غائيـة مؤصلـة في نصـوص الوحـي وتجـارب العلـماء والمصلحـين.

وفيما يلي بيان لمضمون هذا الكمون للقيم والمقاصد في التراث الإسلامي:

المقاصـد مفهـوم متـداول في الـتراث الإسـلامي، فأمـا وروده في الوحـي فبـدلالاتٍ متنوِّعـة منهـا النيَّـات والإخـلاص وغيرهـما، وأمـا اسـتعماله في الـتراث العلمـي للعلـماء فهـو أمـر لا يحتـاج إلى دليـل، وخاصـةً في أبـواب الأصـول والفقـه والعقائـد.

أمـا مصطلـح القيـم، فلـم يكـن مألوفًـا في لغـة الـتراث عـلى النحـو المعـاصر، ومـردُّ هـذا الغيـاب وعـدم الأُلفـة - في نظـر المؤلِّـف - كـونُ العلـماء اسـتعملوا مصطلحـاتٍ أخـرى يمكـن اعتبارهـا عناويـنَ للقيـم، مثـل الفضائـل والشـمائل والأخـلاق والآداب، وكان اسـتعمالها غزيـرًا وكثـيرًا في مصنفاتهـم ومواعظهـم ودروسـهم[٢٢].

(٢٢) انظر: ص١٧٥.

أما تداول المقاصد في العصر الحديث، فهو أشهر من نار على علم، بحيث أصبح - كما سبق القول - عَلَمًا على علمٍ قائم الذات، وأصبح وسمًا لحقلٍ معرفيٍّ وشرعيٍّ له قواعده وأُسسه وتنظيراته وتطبيقاته في مجالات التدين والحياة.

والأمر نفسه كان للقيم في العصر الحديث، فقد عرفت تأصيلًا وتنظيرًا مهمًّا، وإن كان منشأ هذا الاهتمام - حسب المؤلف - غربيًا، لكن جهود المنظِّرين فيها انكبَّت على تأصيلها في التراث وبعثها من جديدٍ في صورة معاصرة وجديدة، إلى أن استقرت مصطلحًا له امتداداته في أبواب الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية والتعليم وغيرها.

ولم يفت الملكاوي التنبيهُ على الانحرافات الاستعمالية للخطاب المقاصدي لأغراضٍ غير مشروعة ولمآرب غير سليمة، فأركبت المقاصد غير مركَبها، وأسندت إليها أغراضًا ليست من طبيعتها، مما سمَّاه هو بـ»توظيف المدخل المقاصدي لمقاصد غير شرعية» مثل: التخفُّف من قيود النص الشرعي والخروج عنه بالأمزجة والهوى، وكان هدفهم في ذلك هو القطيعة معه، والاستعاضة عنه بالعقل بدعوى القدرة على التشريع وإدراك المصالح والمفاسد والوصول إلى السعادة الإنسانية عن طريقه.

وللخروج من هذا المأزق، استند المؤلِّف إلى المنظومة الأصولية المتَّسمة بالقاعدية والعلمية، فجعل من قواعد الأصول والاستدلال الأصولي منهجًا ومسلكًا لإدراك البُعْد المقاصدي للأحكام، فكان لزامًا على من أراد استغلال المقاصد من الحداثيين لتحقيق أغراضهم الولوجُ إلى ذلك عبر بوابة الأصول التي لن تسعفهم قواعده الصارمة في تحقيق ما تشرئبُّ إليه أعناقهم.

وانسجامًا مع منهجه في البحث، اقترح الملكاوي سبلًا لما سمَّاه بـ»تربية القيم» لإضفاء صفة العملية على تنظيراته في الموضوع، فحصر هذه السبل في: تعليم القيم في الأسرة، وتعليمها في المدرسة، ونشرها في مجال الإعلام ومؤسسات الدولة والمجتمع، وبهذا يكون للقيم حضورها بأبعادها المقاصدية، بدءًا من الفرد وانتهاءً بالأمة.

أما **الفصل الخامس** وهو الأخير، فقد خصَّه بـ»تفعيل المقاصد في التربية والتجليات التربوية للقيم القرآنية العليا»، ويمكن تقديم أهم أفكار الفصل في الآتي:

انطلق الكاتب من إشارةٍ للدكتور فريد الأنصاري في كون التجديد الاصطلاحي في علم الأصول عند الإمام الشاطبي كان ذا بُعْدٍ ومقصدٍ تربويٍّ، أي إن غاية المقاصد - بما هي مبحث من

رحم علم أصول الفقه - هي تصحيح الانحراف التربوي الطارئ على تدين المكلَّف، ومن هذا الاقتباس انطلق المؤلِّف لبيان مناحي تفعيل المقاصد في المجال التربوي، ويمكن تلخيص نظره للموضوع في الآتي:

الربط بين المقاصد والتربية ربطٌ بين متجانسين، فمن المقاصد استحضار قصد الشارع في الأحكام والآداب والأخلاق، ولا شكَّ أن الأصل هو موافقة مقصود الشرع، وكون هوى المكلَّف تابعًا لمراد الشارع وشرعه.

ضعف تفعيل المقاصد في المجال التربوي والاقتصار على تفعيلها في مجال الأحكام العملية والاجتهاد الفقهي، وهو أمر تُبديه الكتابات والتجارب في الموضوع، مع أن نظرةً فاحصةً لما كتبه الشاطبي في المقاصد تجلي العلاقة الكامنة بين المقاصد والتربية.

الربط بين التربية وحفظ العقل أساسُ العمل التربوي - في نظر الملكاوي - لكون حفظ العقل يكون بالتعليم والتعلُّم، ولا تربية بلا تعليم ولا تعلُّم، ومن هنا كان التشبُّع بالتربية عن طريق إعمال العقل أحسنَ وأكثر فاعليةً، فالعقل مناط التكليف، وهو وسلية تحقيق مناطات الأحكام والتربية.

وليكون التصور متكاملًا في الموضوع، اقترح المؤلِّف تصنيفًا للمقاصد التربوية ليسهل ربط المقاصد بها ومحاكمتها إلى المقاصد الشرعية، **وفيما يلي مسرد لهذا التصنيف:**

- مقاصد تربوية للدنيا، ومقاصد تربوية للآخرة.
- مقاصد تربوية غائية، ومقاصد تربوية وسيلية.
- مقاصد تربوية مصنَّفة حسب موضوعات العلوم.
- مقاصد تربوية مصنَّفة حسب مؤسسات التربية والمجتمع.
- تصنيفها على أساس القيم المقاصدية العليا، وهو ما ختم به الفصل الخامس الأخير.

وبهذا يكون الكتاب قد اكتمل في صورته الأخيرة بعد دمج الفصلين الأخيرين في الفصول الثلاثة الأولى التي شكَّلت مادة الكتاب الأول، وبه يكون المؤلِّف قد استكمل الموضوع من جوانبه النظرية والعملية.

الأطروحة المركزية للكتاب:

من خلال ما سبق، يمكن تحديد أطروحة الكتاب في محاولة اكتشاف عناصر النظام المعرفي الإسلامي الكامنة في منظومته التشريعية ونصوص خطابه ومقاصد علومه، بناءً على جهود طه جابر العلواني ورؤيته للمقاصد العليا المحصورة في (التوحيد والتزكية والعمران)، بوصفها قيمًا حاكمةً لمجالات العلم والمعرفة والممارسة الواقعية للأمة، وناظرًا في هذه القيم بامتداداتها المرجعية في نصوص الوحي وتجارب المدارس الفكرية التراثية والمعاصرة.

ولبناء أطروحة الكتاب، استنجد المؤلِّف بعمليتي (التأصيل والتنزيل)، فلم يقتصر على تتبُّع المفاهيم المركزية للكتاب في نصوص القرآن والحديث وتجارب العلماء لبناء تصوُّر أصيل وشامل لها، ولكنه عمد إلى تنزيل ما توصَّل إليه من خلاصاتٍ في الموضوع على واقع الأمة الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، وذلك من خلال اقتراح سُبل كفيلة بتحقيق رؤيته للقيم الحاكمة والعليا في مناطاتها في الواقع الخارجي، تفعيلًا لمضامينها المنهجية وتفسيرًا بها لقضايا مشكلة في واقع الأمة الإسلامية.

ويمكن تقسيم أطروحة الكتاب إلى محاور ثلاثة وهي:

تأصيل القيم العليا في الوحي وتجارب الأمة.

رصد التجليات والتأثيرات المنهجية والوظيفية للقيم العليا في التراث الإسلامي والفكر المعاصر.

تلمُّس أوجه التفعيل الواقعي للمقاصد المؤسِّسة للقيم العليا في التجارب التربوية للأمة.

لقد كان **المنهج** الذي سلكه الملكاوي في تحقيق أطروحة الكتاب هو التأصيل والتحليل، منطلقًا من نصوص الوحي وتنظيرات العلماء في الموضوع، ومنتهيًا إلى خلاصاتٍ كليَّة واعتمادها في عمليتي التفسير والتفعيل.

ولم يكن المؤلِّف متجاهلًا بأفكاره وتنظيراته ما كُتب في الموضوع، وإنما صاغ الكتاب منطلقًا من تنظيرات أستاذه العلواني صاحب الاصطلاح الأول فيه، لكنه لم يبقَ رهينًا له في جميع تفاصيل الكتاب، بل عمد إلى النصوص مستنطقًا ومحلِّلًا ومستخلصًا وبانيًا على جهودٍ علمية أخرى في الموضوع شكَّلت مصادرَ مرجعيةً استمدَّ منها بعض أفكاره وطوَّرها وثوَّرها حتى أصبحت ماثلةً في هذا العمل.

وقد تنوَّعت مصادر الكتاب، فكانت جامعةً بين هدايات الوحي - كتابًا وسنَّة - وكتب التراث الأصيلة، معتمدًا على مصنفاتٍ في المنهج والبحث ومراجع مباشرة في الموضوع، وهذا الاختلاف في مصادر الكتاب ومراجعه زاده غنًى في مادته العلمية، وأكسبه أصالةً وعمقًا وانفتاحًا على مجالاتٍ قد تبدو في بادئ الأمر بعيدةً عن صميم فكرته، لكنها تمثِّل امتدادًا مرجعيًّا فيها إشارات وإيماءات إلى موضوعه.

وبعدُ:

فإن الكتابة النسقية تفضي إلى تكامل الرؤى وتلاقح المعطيات، وكذا المراجعة المثمرة والنقد المستمر، وإنضاج التصورات بشكلٍ لولبيٍّ يحقِّق تنامي المفاهيم وبناء الأفكار.

ولكن لا ينبغي أن تسقط في التكرار والاجترار، وذلك ما نسجِّله على هذا الكتاب الذي تضمَّن مادةً كاملةً من كتابٍ سابقٍ هو في الأصل شرح وتطوير لمنتوجٍ آخر، فكان من المفيد تقديم بعض الإضافات أو التفاعل مع الملحوظات المقدَّمة من طرف القراء والباحثين.

ثم إن التأمُّل العميق في فصول الكتاب يوصل إلى وجود بعض الثغرات وغياب التناسق نتيجة الاحتفاظ بمادة الكتاب كاملة.

يطرح موضوع القيم كثيرًا من الأسئلة على المستوى البيداغوجي، والمؤلِّف وإن كانت له خلفية تربوية، فإنه لم يتناول مسألة بناء القيم بالشكل المطلوب، فاكتفى بذكر بعض الآمال والمقترحات المغرقة في التجريد النظري، والملحظ نفسه فيما يتعلَّق بمسألة تفعيل المقاصد التي انتقد القصور الذي اعتراها، ولكنه لم يتمكَّن من تقديم توصيفٍ عمليٍّ للخروج من الأزمة.

🕮 على سبيل الختم:

يمكن اعتبار هذا الكتاب إضافةً نوعيةً للمكتبة الإسلامية المعاصرة، لما اتَّسم به من دقَّةٍ في الطرح وجدَّةٍ في المعالجة والتحليل، ولاقتدار صاحبه على تحقيق قدر ضافٍ من العلاقة التكاملية بين المقاصد والقيم، بما يُعَدُّ وسيلةً ناجعةً في الممارسة النقدية على الكسب المعرفي السابق، وتحقيق كسب معرفيٍّ مواكب للإشكالات والقضايا المستجدة الحارقة، وإن القراءة المستوعبة لهذا المؤلَّف تتيح استشراف آفاقٍ معرفية واعدة، يمكن للباحثين الجادين أن يقدموا من خلالها إسهاماتٍ معتبرةً في ميادين التربية وفلسفة القيم وآليات بنائها وتقويمها.

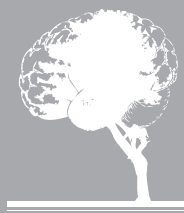

مركز نهوض
للدراسات والنشر
NOHOUDH CENTER
FOR STUDIES
AND PUBLICATIONS

قراءات

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠٢٠
All rights reserved © 2020